قصص سعودية

نشرت هذه القصص عام ٢٠١٨ م

ح وزارة الثقافة، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
وزارة الثقافة
قصص سعودية. /وزارة الثقافة. الرياض، ١٤٤١هـ
ردمك: ٤-٢-٩١٢٨٧-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي ٨١٣.٠١٩٥٣١ ١٤٤١/٧٢٣٩

رقم الإيداع: ١٤٤١/٧٢٣٩
ردمك: ٤-٢-٩١٢٨٧-٦٠٣-٩٧٨

طُبع هذا الكتاب
على ورق صديق للبيئة
FSC

جميع الحقوق محفوظة © وزارة الثقافة ٢٠٢٠

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو مكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها تسجيل المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

طُبع في المملكة العربية السعودية

هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

قصص سعودية

مجموعة من المؤلفين السعوديين

الدلافين

«أميمة الخميس»

أسفل الصفحة في الجريدة إعلان مربع صغير، يشير إلى أن المتنزه الذي على طرف الصحراء سيقيم استعراضاً للدلافين.

ملأت رائحة البحر حجرات صدري، غمر الزبد وجهي، وتناثر الرذاذ المالح فوق شحوب الظهيرة، بينما ازدحمت صالة منزلي بصفير الدلافين وصياح النوارس.

الدلافين وجلدها الفضي الصقيل، وزعانفها المصفقة بالضحكات، تنزلق في رغوة الموج، ثم ترتد مع المد وقد نبتت على زعانفها الأشرعة والأصداف.

طرت بإعلان الجريدة لزوجي قائلة: «سيكون خياراً مناسباً لعطلة نهاية الأسبوع، بدلاً من التحديق في الظلمة

الخاملة داخل مطعم تسورت ستائره بساتر، حتى إذا وصلنا لطاولتنا، وجدنا أن الناس نسوا ثرثرتهم فوقها وغادروا، فترتفع بقايا الثرثرة ودخانها بيني وبينك فلا أعود أراك».

لكن الآن سنغطس أرواحنا بموج الدلافين، ومن ثم سنبتاع فطائر نقضمها مع أكواب شاي على طرف الصحراء.

حين وصلنا لم يكن داخل المكان ما يميزه عن المتنزهات التي نبتت فوق كثبان «الثمامة»، أسوار إسمنتية تطوق بعض الغرف المتناثرة داخلها، وتلتف حولها ممرات اصفرّ عشبها، لم يكن هناك ما يشير إلى سرب دلافين وزبد موج. الجو المرتخي والعمال الهنود وخطواتهم المنهكة المتبرمة من المسؤوليات، ناشرين حول أجسادهم هالات بنية غامقة، ولكن كان باستطاعتهم أن يخبرونا عن موقع بحر الدلافين.

أشاروا إلى مبنى مستطيل مغلق بلا نوافذ يوجد في جداره الشرقي شق طويل، يبدو كمرآب سيارات هائل، مطلي بلونين علوي أبيض والجزء السفلي ربما كان أزرق في يوم ما، نرقى إلى مدخل المبنى عبر درج حديدي صعد بنا إلى بوابة صدئة، تنفتح على بركة ماء ضخمة تحفها ثلاث مدرجات حديدية بلا طلاء، شعرت أن الذي صنعها هو من صنع درج البوابة نفسه، بينما رائحة كلور نفاذة تعبق في المكان.

رائحة الكلور ذكرتني بالمسابح وسربت لي شهوة القفز والابتلال؛ لكن استوقفنا بعد بضع خطوات من البوابة الصدئة رجل صدئ أيضا، شفتاه مبرومتان كحبل متهرئ وأسنانه فوقها خطوط صفراء رفيعة، وأشار إليّ بأصبعه إلى مقاعد النساء فوق المدرجات الحديدية، وبذقنه دون أن يتحدث أشار لزوجي للجهة المقابلة حيث مقاعد الرجال، أطفالنا لم يكترثوا بالترتيبات بقدر

ترقبهم الدلافين التي ستوزع علينا رذاذ الموج.

وسللت يدي من يد زوجي وتوجهت لمقعدي ولم ألتفت خلفي؛ خفت أن أفر وأتراجع، كان صوت آلات فلاتر الماء يئز حولي، وأضواء الفلورسنت تنعكس على الماء، فتظهر على شكل لطخات زرقاء معتمة.

لم يكن حولي فوق مدرجات الحديد سوى بضع نساء يرقبن المشهد بخدر من خلف طمأنينة النقاب، وأطفالهن بأيديهم قراطيس رقائق بطاطس خشخشتها المتصلة تثير الحنق. أحسست بالوحشة؛ فأخذت أتبادل التلويح مع أطفالي القابعين في الضفة المقابلة، ونحن لا نكاد نسمع صفير اثنين من الدلافين في أقصى حوض الماء، لم تبالِ بالاستعراض بقدر لهفتها على سميكات صغيرات يلوح بها المدرب الأشقر؛ ولتأخر العرض وإحساسي بالضمور؛ استغرقني تأمل الرسومات والبقع التي صنعها عبق الماء في السقف، كانت هناك قوافل

وخيام وتلال.

ولم أفطن عندها إلى أحد الدلافين وقد خرج من المسبح حبواً على غفلة من المدرب ونبتت له أطراف، قبل أن يتحول إلى ناقة هائلة شربت ماء المسبح كله، ثم مضت متوغلة في كثبان الثمامة وبطنها يرتج بالماء، وعندما فرغ المسبح من الماء، وجدت أنه لم يعد هناك من مسوغ لمكوثنا، أخذت أبحث عن باب الخروج الخاص بالنساء؛ لأفر من متنزه يقبع مستوحشا على طرف الصحراء.

المعلقون على الجراد

«ساعد الخميسي»

نجح أهالي تخوم «أم الحما» مؤخراً في إقناع صغارهم بعودة «عواد» الذي صعدت به يد المنية؛ حينما رسخوا في أذهان رفاقه أن جرادة ضخمة استجابت لندائه وجالت به في السماء، قاطعين لهم بحقيقة عودته قريبا؛ لأن المعاودة من طباع الجراد، ومنذ تلك الخديعة البيضاء وعيونهم تبتهل إلى كل ما يعبر فوق مساحات لهوهم من النجم والطير.

«عواد» له ابتسامة شفافة كانت كافية لأن يشرب منها أصدقاؤه ضحكاتهم إلى منتهى النهار؛ يبتسم حتى في مفاصل الخصومة ابتسامة استقاها من رحابة السهول التي تحوم حول خيامهم.

«عواد» الذي أحب الطيور غادر إليها.

كان يجيد الحكاية بمهارة عن كل طير يحط على غصن شجرة قريبة منهم، تجتمع حول حكاياته أشواق رفاقه مستمعين ومتسائلين عن رحلة الطير، وعن سر اختلاف أشكالها وألوانها؛ ليسرد عليهم من أنباء تختلقها مخيلته الموغلة في صمت الأفق.

عفّى زمن على تجوال «عواد» ولا يزال مسهبا في غيابة سماء بعيدة.

وهنا طفولة تجتمع وتتربص بكل ما يمر بسمائهم الساكتة عن تبرير اليقين.

اليوم نضجت طفولتهم قليلاً عن خديعة الجرادة... ونهضوا جمعاً لأداء حق الشعيرة.

آمنوا بتلك الشعيرة... وما فتئوا متربصين تربص من («عواد» لن يعود) لا يؤمل العودة، وإنما يؤمل على ما يجوب الجو أن يبلِّغ عنهم تلويح وداع.

أفكار حول طريقة ابتكار تهمة

«ضيف فهد»

قف...

بعد أن فتح الباب، وبضربة واحدة أصبح في وسط الغرفة، قال بطريقة صارمة ومحايدة مثل حجر: قف. وقفت، ثم لحقت به خلال الممر الطويل المؤدي إلى غرفة التحقيق.

لم يُصدر لي أمر اللحاق به، لم يكن بحاجة لأن يفعل؛ فهو من جهة حريص على عدم إضاعة وقته في مثل هذه الأمور المفروغ منها، ومن جهة أخرى لقد قمنا معاً، أنا، وهو بهذه الخطوة من قبل، وأصبحنا الآن على فهم تام ومعرفة كاملة بأن ما دفعه – وهو المسن قليلاً في جميع الأحوال – لترك مكتبه، أو كأس الشاي الذي كان

يتناوله، أو قطع المكالمة مع زوجته، التي كان الهدف منها تذكيره بأشياء لم يكن من الوارد بالنسبة له نسيانها، أو أي انشغال آخر لا يجعله يتذكرني، ما دفعه لتنحية أي من هذه الأمور جانباً والحضور إلى زنزانتي الرطبة كما يفترض في زنزانة تقليدية مُتخيلة، لم يكن قراره الشخصي، إنما كان بطلب من مسؤول التحقيق؛ لذا هو لم يكلف نفسه عناء إعطائي أمراً بأن أتبعه، فقط بعد أن قال لي قف، انتظر قليلاً حتى شاهدني أتخذ الخطوات الأولى لوضع هذا الأمر موضع التنفيذ؛ لينصرف بعدها بخطوات متمهلة، مفسحاً المجال لي كي أتبعه بتمهل مماثل يفرضه طول القيد الذي يطوق قدمي. تبعته بتلك الجلجلة التي تصدرها حلقات السلسلة المعدنية، عندما ترتطم ببلاط الممر المؤدي إلى غرفة التحقيق. عموما أنا غير راضٍ عن استخدام هذا التوصيف «جلجلة» ولدي أمل في أن يجد من يتصدى لكتابة قصتي لفظاً أكثر دلالة،

أن يكون ذكياً وخلاقاً بشكل استثنائي يسمح له بابتكار قدرة إضافية للغة كي يصبح بإمكانها توصيف الأصوات بشكل أكثر دقة لكل من لم يسمعها مسبقاً. مؤكد أن هناك من لم يسبق له سماع صوت ارتطام سلسلة قيد بأرض ممر أثناء حركة سجين.

عموماً لتكن جلجلة مؤقتاً، جلجلة صاخبة بشكل متقطع، في تناغم مع رفع قدم ووضعها ثم رفع الأخرى، تتابع الخطوات التي يعرفها الجميع، إنما بزيادة كونها خطوات ذات طول محسوب، وثقيلة إلى حد ما، وتتصف بالسأم. أنا ذاهب في هذا الممر الآن، لمرة أخرى جديدة من مرات لم أكن حريصاً على عدها، لا أمتلك مثل هذا الهوس، ومع كل انعدام للمعنى أو الفهم الذي يسيطر عليّ، لم أصبح من أولئك المعتوهين الذين يحاولون جمع شتات أنفسهم من خلال العد، عد التكرارات السخيفة المحيطة بهم، عد تكرارات غلق وفتح البوابات

التي يصل صوتها لهم من بعيد، عد بلاطات الحمام، أو القضبان الحديدية في النوافذ، أو مرات ظهور واختفاء حراسهم، أو اكتشاف أوقات مناوبتهم، ذاهب فقط ببال خال، ومتشوق للمعرفة، ومستعد لقبول - نتيجة لجهلي الكامل بطبيعة ما أنا في وسطه الآن - المفاجآت التي سأكتشفها عن نفسي: ما هو الماضي السيئ الذي خضته كي يصل بي في النهاية إلى هنا ؟! منتظراً مساعدة هذا الذي يتصدى لكتابته، كي يختلقه بشكل مقنع ومقبول، لي أولا، إذ إنه عليّ التأكيد على أهمية معاملتي بكرامة، أو على الأقل بطريقة لائقة، حتى وإن كان المشهد الافتتاحي لهذه الحياة الغريبة بهذه الصورة التي لا تعطي انطباعاً جيداً، ثم مقنعاً لكم لاحقاً، إذ إن آخر ما يفكر به أحد كطريقة لتضييع وقته هو أن يقوم به من خلال قصة تافهة، أو بمقدوره فعل ذلك لكن من خلال قصة ليس لها علاقة بحياتي. قطعنا الممر أنا، وهذا الجندي

الطيب، والمتمهل بشكل إنساني، وأيضاً المتمهل بسبب أن ليس لديه خيار آخر. طرق الباب، ثم فتحه غير منتظر للرد، لا يمكن له نسيان حقيقة أنه لا يجدر بأحد إضاعة الوقت في تلك الأمور المفروغ منها. أمسك بالباب مواراً قليلاً، دون أن يفلت المقبض، مفسحاً لي طريقاً للمرور الآمن إلى داخل الغرفة محاولاً جعل بطنه ضامراً بقدر استطاعته لتلافي أي تلامس لا معنى له يحدث بيننا؛ ثم سحب الباب بذلك المقبض الذي كان حريصاً على عدم إفلاته كي لا يخسر مزيداً من الوقت في العودة للإمساك به من جديد ليغلقه على أنا والمحقق الذي قام باستدعائي.

أعرف تلك العينين. من يكتب حكايتي الآن لا يعرف العيون المميزة للمحققين، العيون التي فقدت نظرتها الأم، لا يعرف أن هذه النظرة التي يرمقني بها المحقق الآن نظرة غير أصيلة، وأن نظرته الأصيلة؛

تلك النظرة التي تميز كل إنسان مثل بصمة قد ضاعت إلى الأبد، ولم يعد حتى بمقدوره تذكرها كي ينظر بها إلى أطفاله أو لأصدقائه أو حتى للناس الذين يمرون بجواره في الشارع، وحل بدلا عنها؛ نتيجة لطبيعة عمله، هذه النظرات المصطنعة التي تحاول إعطاء انطباعا أوليا بالسيطرة والفهم والاكتشاف. رضخت بشكل اختياري لمفعول تلك النظرات الزائفة، التي بلا شك صقلتها التجربة والتمرين المستمر، حاولت بكل ما في وسعي من ادعاء أن أظهر مدى ما أشعر به من بلبلة وانكشاف، وأنني شخص لا يمكن لي الاستمرار في الإنكار، إنكار ما لا أعرفه بالضبط إلى الآن، والذي لم يتطوع من يكتب حكايتي-من اختلقني في هذا المشهد- أن يعطيني ولو مجرد تلميح أولي؛ كان لتلميح جيد يتطوع بمنحه لي في حالتي هذه أن يساعد في إظهار ما أقوم بمحاولة تزييفه- لإرضاء غرور نظرات هذا المحقق- أكثر إقناعاً.

لكن ماذا لو أن صديقي الذي يختلق كل هذا لا يعرف بعد ما هي التهمة التي -وكي لا يسمح لي بمحاولة إنكارها أكثر- سلط هذا المحقق نظراته الخبيرة والمزيفة عليّ. سوف أصبح أنا وهذا المحقق التعيس نقطتين تتلاحقان على محيط دائرة لا تنتهي، ينظر إلي كي أعترف وأنهي هذا الأمر الذي لا يعرف ما هو، وأنا أستسلم لهذه النظرات وأظهر استعداداً كاملاً للاعتراف بأمر لا أعرفه أنا بدوري، وعليّ أن أخبر عنه بشكل صادق ومحكم ولا يقبل الشك.

أساطير البيت

«ظافر الجبيري»

قدِمتْ من بلادها إلى بلاد جديدة، وكأيّ كائن بشري، سيكون اسمُها العلامة الفارقة لوجودها، ولا ذنبَ لها أن تجده ملازمًا لها كنفَسها الذي تتنفّسه، وكخطواتها التي تحملها أينما سارت. استقبلتْها الأسرةُ باستغراب من الاسم الذي لم يتعوّدوا عليه نطقا، ولم يعرفوا له معنى، هكذا راحوا ينادونها: إيروَس!

في أيامها الأولى، لم يسألها أحدٌ عن معناه، انصبّ اهتمام الأسرة على عملها أكثر من أي شيء آخر؛ وذات مرة، سمعها الرجلُ تنطق اسمها إيرُوس، فناداها به، لكنّ ربّة البيت استرابتْ من التغيير بدون مشاورتها، ولم تكتف بذلك، بل قالت ما قالت عن نبرة صوته،

وهو ينادي المحجّبة الآسيوية، وبعد التفتيش في جيوبه وجوّاله، انتقلت إلى الشبكة العالمية للبحث، لم تَتعب من بحثٍ طويل أوصلها إلى معترك الأساطير الإغريقية، واصلت البحث و(دَعْبست) في مملكة الشكوك، وسألتْ نمّاماتِ جمهورية الظنّ! ثم قالت:

- «يبدو لي معكَ قَصدٌ في تغيير اسمها!»

نفى عن نفسه العلم بما تقصد، ورأى أسطورة الثقة تتهاوى، وفي محاولة أولى، اشترى الكثير من الحرص من سوق الأمان، فوجده بضاعة مضروبة، لكنّه ولكي يرتاح غيّر الاسم إلى (روس) ومع الوقت، تحرّف الاسم الجديد عفويًّا ودون قصد، ليستقرّ على (روز)، فصاحت به:

- «آها.. وَرْدة! لماذا تسمّيها روز !؟»

قرّر أن يكْفر بالأسماء وبتغييرها إلى الأسهل، فهل ينادي الجاويّة باسم أبيها مثلًا:

(يا بنت عبد الرحمن)؟ ربما لو فعلَ، سيَدخل الشكُّ أكثر إلى قلب ذات الشكّ المتحفّز، وستقول من جديد بأنه يرفع مكانة الخادمة، ويتودّد لها بهذا النداء!

في يوم من الأيام القاحلة، دخل البيت، فلم يسمع أحدًا يردّ السلام أو يرحّب به، ولحاجته إلى الشاي والماء، قرر سريعًا أن يناديها:

(يا غلام)! نطقها مانعًا ابتسامةً تتجاذب شفتيه.

لم تُجِب العاملة الغارقة في تنظيف المواعين، ولم تفهم شيئًا ولم تلتفتْ، لكن السيّدة والبنات اجتمعْن سريعًا بين يديه، وبصوت شبه واحد:

«حرام عليك لا تلعب في اسمها وتحتقرها!»

شعَر رجل البيت، وكأن في الأمر متاهةً لا تنتهي، كيف لم يفكّر أحدٌ في الكائن الغريب؟! فالصراع المبهَم يدور حولها، حول اسمها دون أن تعي شيئًا، استبدّ به التفكير، ليصل إلى احتمالٍ جنونيّ دار بخلده، ومن

واقع الارتياب الضارب في الأرجاء، راح يفكر في أعماق نفسه: ربّما قريبًا ستقرأ عن الغلمان في العصر العباسي، وستلعب بها الظنون بسيدة الظنون من جديد، ولم يبق إلا أن تسافر العاملةُ قبل نهاية عقدها، ويُستغنى عن عملها بمعجزة، أو يقترح على سيّدة الرِّيبة أن تختار للعاملة اسمًا على ذوقها الخالي من الشك!

ملامح

«عبد الواحد اليحيائي»

في السبعين من عمره كان أبو بدر حين التقيته أول مرة في مجلس والد أحد أصدقائي، بوجه أبيض بلا شارب، ولا لحية، وبحاجبين حليقين رسَمَ مكانهما خطين دقيقين بقلم مكحلة. أحببته كرجل مولعٍ بتوثيق الأشخاص والأفكار والأشياء، يُرهفُ السمع ملتقطاً الكلمات وراصداً في دفتره الصغير كل ما يعجبه من حكايات الرجال وملاحظاتهم، وما كان ليتوانى عن إيقاف أحد المتحدثين مطالباً إياه بالتأني في الحديث؛ كي لا يفوتهُ الرصد، أو ليستفسرَ عن جزئية لم يفهمها. يقول صديقي الذي كنّا في مجلس والده شارحاً شكل أبي بدر: إن أبا بدر يتعرى تماماً كما يفعل كل البشر أثناء

الاستحمام مع فارق، فأبو بدر يمسك بالموسى الجديدة ذات الخمس شفرات أثناء الحلاقة ليبدأ الحلاقة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، مروراً برأسه وحاجبيه ووجهه وصدره ومناطقه الحميمة وحتى ساقيه، لم أسأل صديقي عن مصدر معلوماته، وربما كانت توقّعاً لا معلومة حقيقية، لكن من يرى رأس أبي بدر يدرك فوراً أن علاقته بالشَعر لم تكن ودية أبداً، لم تكن مثل علاقته بالشِعر الذي كان يحرص على حفظ مقاطع كثيرة منه بالقراءة أو بالتلقي من أفواه الرجال مباشرة. كان متديناُ لا تكاد تفوته صلاة في مسجد الحي في الصف الأول ووراء الإمام مباشرة إن أمكن، مع قدرة يجيدها كبار السن في نقد الإمام وتصويب أخطائه الشرعية حتى حين لا توجد أخطاء شرعية. ذات مرة وبمحضر من المصلين قال موجهاً حديثه للإمام بعد صلاة سجد فيها الأخير للسهو: يا شيخ، من عذاب حياتي الطويلة

وفي هذه السن اضطراري للصلاة وراء جاهل مثل (فضيلتكم)، قالها بسخرية لم تخفَ على أحد. ولم يكن يدع نقد الإمام اجتماعياً أو دينياً إذا خلا بأصدقائه المقربين. وضحك ساخراً حين رأى امرأة مسنة تطلبُ من (صاحب الفضيلة) أن يقرأ وينفُثَ من ريقهِ في قارورة ماء؛ التماساً لبركة الرقية، وقال لها: الأحرى به أن يرقي نفسه عسى أن يُفلح في شيء.

التقيته بعد ذلك في مجالس مختلفة، وقد أقف أحياناً لتحيته أثناء مروره في الطريق متكئاً على عصاه، رأيته للمرة الأخيرة في ربيع بارد وهو يقف على رصيف متوسط السعة في طريق فرعي أحاطت البيوت بجانبيه، كان أحدهم يواسيه بُعَيدَ حادث اعتداء تعرض له قبل يومين. زعم الشقيان اللذان ضرباه أن أبا بدر طلب يد أختهما العشرينية للزواج، بل وتغزل بجمالها بوقاحة أمامهما زاعماً أنها تُحبه.

ونحن وقوفٌ على الرصيف شرح لي أبو بدر قصة الاعتداء بصوت متهدج، وأراني كدمة على رأسه واحمراراً قانياً على ركبته، ثم تابع: والله البنت تحبني، تحب ثقافتي، لكن إخوانها كلاب وسأشتكي عليهم. قال واقف آخر وهو يسمع الحكاية: تضحك عليك يا عم، هي في سن حفيداتك، كيف تحبك؟! لكن أبا بدر لم يقتنع، لم تعجبه مخاطبته بيا (عم) فضلاً عن الإشارة بأن الخطيبة في سن حفيداته، تغيرت مع هذا اللمز ملامح وجهه؛ وأصر أن الفتاة تحبهُ لأنه مثقف، ومشهور في الحي، ولا يحتاج مادياً، وأنيق، وأصرّ على تقديم شكوى في مركز الشرطة على الكلاب حتى وإن لم يعجب حبيبته ذلك، لأن كرامته – كما قال – أهم من حبه.

لم أتابع القصة ولم أهتم بما كان بعد ذلك، ما أعرفه أن أبا بدر توفي بعد فشل خطبته بشهور لأسباب صحية طبيعية لا علاقة لها بحادثة الضرب.

شجرة النيم

«عمرو العامري»

لم يعتد أبي أن يشاور أمي في شيء، ليس لأنه مستبد أو متسلط؛ ولكن هكذا اعتاد الرجال أن يفعلوا، وهكذا اعتادت النساء أن يقبلن، وهكذا اعتادت الحياة أن تمضي.

هذه المرة ناداها، وتحدث معها وهو يحدق في الأرض أو يذهب بنظره في مكان بعيد جداً عدا النظر إلى وجهها:

ـ الأولاد كبروا والبيت ضاق علينا ونحتاج توسعة وبناء غرفة إضافية.

ـ الله يقويك، هذه أمنيتي من زمان.

وحاولت أن تمضي لتنجز «المكدس» من أعمالها،

لكنه أضاف:

ـ ولكن أين نقيمها؟ المكان ضيق ولا بد من قطع وإزالة شجرة النيم والبناء محلها.

هنا حدقت نحوه بفزع وقالت:

ـ لا. رجاء ابن في أي مكان عدا قطع الشجرة؛ أنت تعرف كيف سيكون بيتنا وحياتنا وعصارينا ومقيلنا دونها، هي أفضل من ألف غرفة.

ومرة أخرى حاولت أن تمشي لكنه استبقها مرة أخرى:

ـ فكرت كثيراً؛ لكن الشجرة تتوسط الحوش ولن يكون موقع الغرفة مناسباً إلا إذا قطعناها وبنينا مكانها.

ـ اللي تشوفه.

ومضت هذه المرة دون أن تلتفت؛ ذهبت لنشر الغسيل على الحبل المربوط بين شجرة النيم وبين مسمار مدقوق في جدار بعيد.

كانت تعرف أنه قد حزم أمره ولن يغير رأيها في قليل أو كثير، لكن ما حيرها هو مشاورته لها ولأول مرة.

ـ اللهم اجعله خيراً.

هكذا تمتمت بينها وبين نفسها وهي تنصرف إلى أعمالها، وكانت تتحرك وعيناها عليه وهو ما زال واقفاً حائراً يدور بعينيه في زوايا المكان أحياناً وعلى الشجرة الضّاجة بأصوات العصافير أحياناً وفي الفضاء أحياناً، قبل أن يغادر لبعض شؤونه.

وبعد أن غادر سحبت «القعادة» تحت الشجرة وعادت تتأملها وكأنها تراها لأول مرة، أو كأنها ستراها للمرة الأخيرة.

عادت تتذكر الشجرة التي أحضرها هو «زوجها» في بداية حياتهما وانتقالهما إلى البيت، كانت شجرة غريبة عما اعتادا عليه من أشجار. وشجر النيم لم يكن من أشجار المنطقة المعروفة في حينها حتى أنها ظنتها في

البداية نوعاً من الخضروات.

لكن الشجرة ما لبثت أن كبرت واستطالت، وبعد أن تم تهذيبها أصبح تحت ظلها متسع لجلوس شخصين في وهج الظهيرة، ومكان للعب الأطفال بعد أن كبروا، ثم بدأت تأوي إليها العصافير.

ومع الأيام غدت هذه الشجرة محور كل شيء في يوم العائلة. يأكلون تحتها. ويصفون بها البيت للغرباء الذين يجيئون للبيت أول مرة.

ـ أيوه أيوه البيت اللي فيه شجرة النيم، أيوه هو ما فيه بيت غيره فيه شجرة نيم.

بعضهم كان يأتي ليقطف من أغصانها أوراقا يغليها ويشرب عصارتها بعد أن سرت شائعات أنه شفاء لمرضى السكري، وبعض الفتيات كن يجمعن الورق ويصنعن منه لبخات تعيد النضارة للوجوه وتطيل الشعر.

والدنا أيضاً علق لنا على أحد فروعها القوية

«مرجيحة» نتداول احتلالها طول النهار.

وعندما كبرت أنا قليلاً وخفق القلب خفقته الأولى نقشت أول حرف على أحد جذوعها المخفي بلغة أعجمية على سبيل الاحتياط. كان حرفاً بليداً ما لبث أن اختفى وسط جذع الشجرة النامي.

اشتدت حرارة النهار وانحسر الظل؛ ليبقى تحت أقدام الشجرة فقط، وانتهت أمي من بعض أعمالها وعادت لتسحب «القعادة» تحت الظل بعد أن نفضتها من الأوراق المتساقطة وجلست تفكر:

ما الذي ستفعله لو أصر هو (ولم تكن تلفظ اسمه) على قطع الشجرة؟ كيف سيغدو منظر البيت دونها؟ وهل ستزرع هي أو تستنبت شجرة أخرى؟ شجرة في زاوية بعيدة لا تزاحم المكان. ولكن هل يتسع العمر لزراعة شجرة وانتظارها؟!

نسيت الموضوع في زحمة المشاغل ولعب الصغار،

وفي النظر نحوي أحياناً وأنا أحاول المذاكرة قريباً منها، لكن ذهني كان معلقاً بعصفور يبني عشه الصغير مع عصفورة أخرى بالتناوب، ولم أكن قد سمعت حوارهما حول الشجرة.

غير أنها باغتتني بسؤال:

ـ هل ستزرع لأمك شجرة أخرى لو أصر أبوك على قطع الشجرة؟

ـ يقطعها؟ ليش؟

ـ يقول يبغى يوسع البيت؛ يقول ضاق علينا.

ـ أبويه فلوسه زادت وإلا البيت ما ضاق.

ـ هذا رأيي أنا، ولكني أعرفه عنيدا؛ المهم هل تزرع لأمك شجرة أخرى لو قطعها؟

وحدّقت في وجهها وكانت هناك دمعة تترقرق.

ـ من بكرة أزرع لك أشجاراً مو شجرة.

ـ لا ليس من بكرة وليس هنا، في بيتك بعد أن تصبح

رجلا ويصبح لك بيت.

في هذه المرة سقطت الدمعة، سقطت رغم أنها حاولت مسحها وإخفاءها عني، وعدت أنا أتأمل العصافير، وعادت هي تحدق في الشجرة، وتستمع لنواح الأغصان التي يحركها الريح.

وفي المساء هبت ريح قوية أسقطت الكثير من أوراق شجرة النيم، وفي المساء لم تأوِ العصافير كما اعتادت أن تفعل في شجرة النيم.

وفي الصباح كان حطاب يقطع شجرة النيم.

وسرت في القرية شائعات مؤكدة هذه المرة، شائعات تقول إن أبي سيتزوج أخرى بمجرد الانتهاء من بناء غرفة جديدة وواسعة، غرفة تحتل مكان شجرة النيم المغروسة في التراب.

ذاكرة الحفرة

«فهد العتيق»

حين كان شارعهم يودع آخر أنفاس شمس الغروب، كانوا يلهون في الحارة حفاة الأقدام، ويطلّون على سكان البيوت المواربة أبوابها الملونة.

لم يكونوا بعيدين عن تلك الحفرة الوشم التي لم يروا حياتهم منذ ولدوا بدونها. لكنهم فجأة سمعوا صرخة صغيرة، في الوقت الذي لمح فيه طفلا يهوي في الحفرة التي تشبه البئر القديمة.

كانت لحظة غارقة في ذهول طفولي أسود.

وكان الطفل في تلك اللحظة المرعبة، يطلق صرخة مدوّية من صدره الصغير، وربما كان معها يطلق النفس الأخير.

كان كل شيء مرعباً بعمق معنى الكلمة، وكان في المكان جمع كبير، كانوا قادمين من سوق المدينة، باتجاه مساكنهم، توقف الناس وأخذوا يحدقون في الهوة المظلمة التي ابتلعت الطفل، وهو من البعد يرقب المشهد بهلع، كان كمن ربطوا قدمه بسلك كهربائي، يرتعش والعرق يتصبب من جسده، وبدا مثل من لا يصدق ما رأى، كائن بشري يسقط في ظلمة أبدية تبتلعه بكامله.

مع مرور الأيام حاول نسيان ما حدث لكن بلا فائدة، ذهب بعيداً في مذاكرة الدروس واللعب، ولكن أشياء كثيرة دائماً ما ترسم تلك الصورة في ذهنه، مع إحساس غامض كان يدهمه أحياناً بأن من سقط في تلك الحفرة هو، وليس أحداً سواه، وكان في أوقات أخرى يتصرف على هذا الأساس، كما لو أنه ذلك الطفل الذي هوى، حتى رأى ذات حلم أن الحفرة تتسع وتتسع؛ لتلتهم في

طريقها نحو المزيد من الاتساع، المزيد من الناس، حتى أصبحت أكثر اتساعاً؛ لتلتهم حارتهم بأكملها.

فيما بعد اكتشف أنه كبر وأنهم انتقلوا إلى حارة جديدة، وصار لهم جيران جدد يقتنون سيارات جميلة وملونة، ويلبسون ثياباً ناصعة البياض، يعطرون ملابسهم ويخرجون من منازلهم، ثم ينطلقون في شوارع المدينة.

ثم كبر مرة أخرى؛ ليعرف أنهم جميعاً يسيرون عكس اتجاه السير!

عن الفتاة في المنزل المقابل

«هند الغريب»

كنتُ أجلس على رصيف المشاة بجوارها، قالت لي: لن نرى العالم كما هو ما لم نتوقف عن الكذب، علينا أن نكون أكثر شجاعة!

هززت رأسي بملل وقلت: علينا أن نكون شجعان حقاً!

أخذت أفكر في نافذة المنزل التي تطل على أهم أسراري وأكثرها لذة، فسألتها: متى كانت آخر مرة تصرفتِ فيها بشجاعة؟

قالت: كل يوم، أتصرف بصفتي جزءا أصيلًا من العالم، أظهر كاملة...

وعندما ذكرت الكمال غاب صوتها في فراغ الشارع،

وتخيلت بوضوح نافذة منزلي وهي تتوهج من ضوء وحيد، يجلس تحته جاري في المنزل المقابل.

كان يفتح نافذته كل صباح في تمام الساعة السابعة، ليمارس رياضته الخفيفة، بينما أكون في الجهة المقابلة أجرّ قدميّ عادةً من السرير إلى خزانة الملابس، ومنها إلى المطبخ حيث أشرب كوبيّ ماء على عجالة، بعد أن أكون قد ركضت في دوّامة كوابيسي طوال الليل. أرتدي ملابس الخروج بشكلٍ عشوائي وأهرب من المنزل تاركة خلفي كآبة لا تبددها الشمس، وأتّجه نحو أيام غير مخطط لها وكارثية بالضرورة.

أما جاري، فكان ينحني بهدوء أمام شتلات زهوره ليسقيها وهو يتمتم بأغنيةٍ ما، لم أفلح يومًا في اقتناصها، كما لم أفلح أيضًا في تقدير عمره، فمرةً يبدو لي في الأربعين، ومرةً أصغر من ذلك بكثير.

يحدث أن أبقى أحيانًا خلف النافذة أرقبه لدقائق

حين يتوقف عن رياضته ليمسح العرق عن جبينه ورقبته، ويرفع خصلات شعره الأشهب التي تظلل عينيه.

في إحدى الأصبوحات، بينما كنت ألهث لأنني متوترة ومتأخرة كعادتي، كان يلهث هو أيضًا من نشاطه الصباحي، ولكنه انتبه لي وأنا أقف أمام النافذة المفتوحة لأحشو حقيبتي بأوراق لا معنى لها، وبين لهاثنا، مرر لي كلمة وحيدة: مرحبًا!

حدقت فيه للحظة وابتسمت، ثم أغلقت النافذة وأسدلت الستارة؛ ضمن مشهدٍ شديد الحماقة.

«هيه، أين سرحتِ؟!» قالت لي رفيقتي.

قلت: كنت أفكر إلى أي مدى يمكن للإنسان أن يكون شجاعاً؟

فتحت يديها باتساع وقالت: قدراتنا أكبر مما تتصورين!

هززت رأسي هذه المرة بانفعال، وعادت ذاكرتي

إلى جاري الذي لا أعرف اسمه، راقبته وتتبعت تفاصيله لمدة طويلة، رأيته في الظهيرة كيف يتناول الغداء برهافة شاعر، كنت أرصد كل حركة لأتعلمها، أحضرت الشوكة والسكين وأمام النافذة تدربت على الطريقة التي سآكل بها معه حين يدعوني للغداء يوماً ما، وحاولت أن أقتنص أسماء الكتب في الرف العلوي من مكتبته... وهو رفه المفضل الذي كان يلجأ إليه في الليل، بحثت عنها وقرأت بعضها، وتخيلت نوع الحوارات الشهية التي ستدور بيننا عندما يفتح لي بابه عوضًا عن نافذته، ويكشف لي مفضلته من الكتب وأجزاء روحه الخفية.

أصبحت مولعة به دون أن أقترب بمقدار خطوة بين بابي وبابه، كل ما كنت أحمله فيّ، تعويذة صغيرة منه هي: مرحباً!

صارت حياتي مرتبطة بضوئه الذي ينطفئ الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، وحين ينام لا أنام،

أدير أول موسيقى سمعتها تصدح من منزله، وأدور أدور أدور.

أعادني صوتها إلى الرصيف البارد: يمكنك أن تجربي! هيا انهضي وقومي بفعل أبله، لن يراك غيري، ولكن سأعتبرها شجاعة منك، هيا!

قفزت من مكاني وركضت حتى منتصف الشارع وقلت لها: راقبي!

صرختُ عالياً ثم بدأت بالتأوه كذئب جريح، وشعرت بعدها أنني أستعيد جزءا مني، نظرت إليها فكانت غير راضية عن شجاعتي التافهة، وقالت: أقل من المتوقع!

فكرت... ولكنني كشخص دائماً ما كنتُ أقل من المتوقع، لا جديد! أشرت لها بيدي وقلت: سأرحل اعتراضاً على أسوأ حوار في العالم!

مشيت دون أن ألتفت، مع أنني كنت فضولية تجاه

معرفة ما إذا كانت فخورة بي الآن أم لا. عدت إلى البيت ونمت، لم أفكر كثيراً، بل شعرت أن الأمور تأخذ مجراها الطبيعي، على الجثة الواقفة أن تهمد بهدوء.

استيقظتُ صباحًا إثر ضجة في الخارج، فانتشلت رأسي من السرير والأحلام بصعوبة، واتجهت نحو النافذة الرئيسية لأرى ثلاثة رجال يخرجون من منزل جاري محملين بكل شيء: الأريكة الخضراء المخملية، المكتبة، الكتب، مصباح الغرفة، أو الضوء الذي خضعت لنوره أيامي، خزانة الملابس، وصناديق كثيرة وأشياء لم أرها من قبل ... كانوا يخرجون كل شيء من المنزل بينما كان جاري واقفاً ينهي مكالمة ويفتح باب سيارته.

ثلاثة رجال حملوا كل شيء ولم تلفتهم قبلة تعثرت في صندوق الأحذية، ورقصة مرهفة في الثياب، لم يستطيعوا حمل عناقات كثيرة لم تحدث، ولم يجدوا الحكايا المخبأة خجلاً في الستائر التي لم تغلق يوماً في

وجهي.

كان علي أن أثبت شجاعتي في تلك اللحظة وأتظاهر بأن شيئاً لا يتغير أمامي الآن، وأن قلبي صلب لن يتمزق، فتحت الباب دون أن ألقي بالاً لمظهري هذه المرة، وقفت على العتبة لأتأمل هدر ليالٍ انغرزت في جسدي.

كان جاري لأول مرة شيئاً بلاستيكياً وكاذباً، ولم أشعر بأنه يخصني وهو يرفع خصلات شعره عن جبينه، ويضع الهاتف المحمول في جيبه، وهو يتصرف كما لو أنه رجل آلي بطراز قديم جداً، حتى أنه لا يكاد يتحرك، وفجأة أصبحت حركاته الصغيرة شديدة البطء، تسمرت في مكاني بينما راح يتمدد عمرٌ كامل من البهجات بين حركة وأخرى، لم يرفع عينيه ليرى الفتاة التي حفظته عن ظهر قلب من خلف زجاج باهت.

فهمت أنه يرحل وأن هؤلاء يساعدونه على الرحيل وأنه لن يأخذ معه شيئاً لي، وأن قبلةً على عنقه ستسقط

على الأرض دون أن يسمع لها صوتاً.. أنهى الرجال عملهم ولم أع إلا حين قال لي أحدهم وهو ينفض عن بنطاله مقطوعة موسيقية: آسف، بالنيابة عن الجميع على هذا الإزعاج، فسألته: هل انتهى كل شيء؟

قال: نعم لقد انتهى، ولن يتكرر.

دخلت المنزل وأغلقت الباب بهدوء، لتأخذني قدميّ إلى جهة لطالما أحببتها، مباشرةً إلى النافذة، وقفت بِسمتِ من يتذكر مجداً زائلاً، كان منزله أوسع من قلبي في تلك اللحظة وخاليا من قطع الأثاث الأثيرة التي حسبتها رفاقي، صرتُ أحارب البكاء بأسلحة واهنة مثل أنني لم أكن الفتاة الملائمة لحياته، وكيف كان سيدرك فتاة مثلي؟ وما الذي أملكه أساساً لأمنحه؟ وكم كنتُ عزلاء حين اجتاحني الأمل وأهلكتني الرغبة.

وفيما كنتُ أنهال بالسوط على ذاتي، انتبهت لأول مرة أن في جدار غرفته ثمة مرآة طويلة ونحيلة، لم أصدق

أنها كانت هناك طوال الوقت ولم أنتبه لها مطلقاً، لقد ظهرتُ فيها كاملة، ولم يسبق لي أن رأيت نفسي هكذا دفعةً واحدة، رفعت يدي ملوحة وقلت بصوتٍ خفيض: مرحباً!

راقبت فمي وهو يخرج الحروف مرةً بعد مرة، كررت التحية وقلت بضع كلمات أخرى، وهكذا تعرفت على فمي العذب، ودرت حول نفسي ثم أخذت أحرك ذراعيّ كحمامة تبينت أن جناحيها غير معطوبين، وأذهلني انعكاس قوامي وشعري ويديّ المجنونتين، وضحكتي... التي جاءت متأخرة عن فتاة حلّقت في المنزل المقابل.

مباريات شطرنج خالدة ولكن بائدة

«طارق الجارد»

مدخل:

مضى على ظهور فكرة الشطرنج خمسة آلاف سنة. قليلة هي الأفكار التي تملك منطقا متماسكا لتصمد كل هذا العمر. أول حركة في اللعبة تحمل بداخلها عشرين احتمالا. أما أول حركتين في اللعبة فتحمل أربعمائة احتمالا، ثم تنفجر و تتشظى الاحتمالات لتتجاوز عدد النجوم في الكون. حينما تنظر إلى رقعة الشطرنج – التي لا تتجاوز الذراع في حجمها – أول مرة، لا يمكن لك أن تتخيل أن أربعة وستين مربعا مرقطا، قادرة على استيعاب احتمالات بضخامة تداعيات الانفجار الكوني الكبير، وتتسع لمواقع معقدة كمواقع النجوم في صفحة السماء.

يمكن تخيل المنجز الإنساني عبر التاريخ كله، من معمار وفن وشعر وفلسفة ورياضيات، كمباريات شطرنج. بعضها متكرر ومطروق إلى حد الابتذال كالأعداد الطبيعية، وبعضها وارد ومحتمل ولكنه لم يقع، كالأعداد التخيلية. بعضها تافه وضحل وعديم المخيلة، غير لائق بالخلود. وبعضها عميق وإبداعي وخلاب، نقش نفسه في الكتب وفي المخيلة البشرية. وأيضا، بعضها عميق وإبداعي وخلاب جدير بالخلود، ولكنه اندثر كحضارة بائدة ومغمورة مثل جزيرة أطلانتس.

لكل مباراة شطرنج افتتاحية، لعبة وسطى، وخاتمة. وبمعنى آخر، يمكننا النظر للحياة بالطريقة ذاتها. ففي الافتتاحية: ثمة حركات تفعلها لتتلمس طريقك في الدنيا كما في الشطرنج، وثمة حركات تُؤتى لك، لا سيطرة لك عليها، وقد تحرف طريقك.

لمكانك من رقعة الشطرنج، ولون بيادقك، وطبيعة

خصمك، والوقت المتاح لك؛ أثر على فرصك في المباراة يوازي أثر مكان ميلادك، عرقك، طبيعة والديك، والعمر المتاح لك على فرصك في الحياة. بإمكانك لعب الافتتاحية كالمتخبط الذي يتعثر بخطواته. وبإمكانك لعب الافتتاحية كمن تعلمها من كتاب أو معلم شطرنج. فهي على تفرعاتها واحتمالاتها كالدروب التي طرقتها أقدام البشرية على هذه الأرض: معروفة ومألوفة. بعضنا يولد في هذه الدنيا وبيده خارطة ويرشده ملاح. وبعضنا يُترك وحيدا لطرقٍ سيختطُّها بنفسه، وسيتعلم أن بعضها مسدود، موحش، أووعر. أما اللعبة الوسطى: فهنا يكمن السحر والخداع والخفة. هنا تفقد براءة و بساطة الافتتاحية، وتتعقد عليك الدنيا والخيارات، وتزداد مناورة خصومك لك. هنا تكون اكتسبت الخبرات، وتكون قد فهمت العواقب والتداعيات. وتصبح كل حركة تلعبها، وكل خطوة تتخذها أشبه بالمقامرات، لها

تبعات على نجاحك في الحياة وفشلك. والخاتمة: هي لا مفر قادمة، فإما ستشعر بالندم على ما أقدمت عليه من خطوات، وإما ستتصالح مع ما قدّمت، إما أنك ستتصرف كالمفاجئ بقدومها وتنازع الحتمية، وإما أنك ستكون متقبلا ما لا مفر منه. عموما، أعتقد أنني بدأت الحديث عن شيء وانتهيت بالحديث عن شيء آخر. فعلا، كنت أتحدث عن مراحل مباراة الشطرنج.

يقال إن معلم الشطرنج البارع يستطيع تخيل ٢٣ خطوة إلى الأمام، وكثيرا ما يستطيع أن يرى نهايتها، أو بالأحرى نهايته، من ذاك البعد؛ إنما لا يتسنى له ذلك عند بدء اللعبة. لا يتيقن معلم الشطرنج عند بداية أية مباراة إلا من الافتتاحية، وحينما تتوثق خطواته الأولى فيها، يتسنى له تخمين مستقبله في اللعبة، وحظوظه. وربما يكتشف في وسطها، أنه في طريقه لختمها في

صالحه، أو أن طريقه مسدود ومن الأحرى لكرامته أن يقدم عرضا بالتعادل أو الإقرار بالهزيمة والانسحاب قبل أن يحاصر أو يطارد ملكه بطريقة مهينة. فليس من وقار معلم شطرنج ولا من بعد نظره، أن يضع نفسه وملكه في نهاية محسومة كتلك.

وهذا النص، أو بالأحرى السلسلة النصية، هو بمثابة مباراة يلعبها معلم شطرنج. كل ما أنا متيقن منه هو الافتتاحية، وأعرف خطواتي فيها وأمشي فيها واثقا، لكنني لست واثقا مما بعدها، وقد آتي بها بلعبة وسطى ساحرة ومغرية أقودكم فيها إلى طريق خلابة، و قد أتوه فيها وأتشتت. وقد يحدوني الأمل حتى أبلغ آخرها، وقد ينقطع نفسي في منتصفها، فأعلن استسلامي قبل أن ينتهي أمري إلى كتابة لا تليق، وأنتهي بكم إلى طريق رتيب. تماما، كما يليق بمعلم شطرنج يجنب نفسه ومتابعيه تلك النهاية المأزومة.

****

مباراة الملك الضليل

ولاعَبتُها الشِّطرَنـج خَيلـى تَرَادَفَـت
ورُخّى عَليـها دارَ بِالشـاهِ بالعَجَـــلْ

فَقَالَـت ومَا هَـذا شَطَـارَة لاعِـــبٍ
ولكِن قَتلَ الشَّاهِ بالفِيـلِ هُـوَ الأَجَـلْ

فَنَاصَبتُها مَنصُـوبَ بِالفِيـلِ عَاجِـلا
مِنَ اثنَينِ فِي تِســعٍ بِسُـرعٍ فَلَـم أَمَـلْ

وقَد كَانَ لَعِبِـي كُـلَّ دَسـتٍ بِقُبلَـةٍ
أُقَـبِّـلُ ثَغـراً كَالـهِـلالِ إِذَا أَفَـــــلْ

فَقَبَّلتُهَا تِسعاً وتِسعِينَ قُبلَةً
ووَاحِدَةً أُخرَى وكُنتُ عَلَى عَجَلْ

«امرؤ القيس»

من السهل افتراض أن امرأ القيس قد تعلم الشطرنج في أنقرة. فليس بوارد من العربي الذي علمته قسوة جزيرة العرب الخفة في الزاد، أن يحمل أحجار الشطرنج ورقعتها معه أنّما ارتحل. ولعله أقرب إلى حمل حبات النرد في ذات الجراب الذي يحمل فيه حبات التمر، ليقامر بها مع الخلان – أو حتى الجان – إن استوحش الصحراء. من السهل افتراض أن امرأ القيس ذهب إلى أنقرة ليستنجد بقيصرها جستانتين من بطش ملك الحيرة. من السهل افتراض أن خلافه مع ملك الحيرة: المنذر ابن ماء السماء، لم يكن سوى صراعا بين كسرى

فارس وقيصر الروم بسيوف عربية، وأن غضبة ابن ماء السماء ليست سوى غضبة فارسية. من السهل افتراض أن الشاعر الذي قضى شبابه في الارتحال مع الصعاليك ومشاطرتهم المجون والخمر والقمار، قد وجد وقتا للافتتان بالشطرنج أثناء سعيه لاستعادة ملكه، وأنه مات بقروح الجدري في طريق عودته من أنقرة لاستعادة ملكه. لقد حار الرواة وعبث الإخباريون بامرئ القيس ومغامراته، وما ظني أنهم خلعوا عليه لقب «الملك الضليل»، إلا إسقاطا لضلالهم وإضلالهم عليه. فمن الوارد جدا بالدرجة ذاتها، أن ذا القروح – اللقب الآخر لامرئ القيس – قد مات بالجدري في طريقه إلى أنقرة وليس في عودته منها. وأنه لم يهرب من ملك الحيرة، وأنه لم يحتج للاستنجاد بقيصر، وأنه لم يسمع بالشطرنج قط، وأن تلك الأبيات منحولة لتسلية الخلفاء الذين تعلموا الشطرنج من بعد، وأن شاعرا اسمه امرؤ

القيس لم يوجد..أو هكذا ظننت!. فآخر ما أتوقع، أن أجد الإجابة على سر هذه الأبيات الشاذة من شاعر جاهلي، بعد ألف وخمسمائة عام من وفاته، في لندن!

كل ما كنت أريده هو الاختباء من المطر، فحينما دلفت إلى "Knight's Bar" كان الساقي يرتب الأكواب ويمسح ماكينة الإسبرسو.

- لقد أتيت مبكرا، لن تجد أحدا تلاعبه الآن.

لم أفهم ما يقصد الساقي، و لكنني ابتسمت بخجل:

- إنني أبحث عن الدفء... هل بإمكاني أن أطلب كوبا من اللاتيه؟

قال لي الساقي وهو يتأمل قميصي المبتل:

- أستطيع أن أرى ذلك...عموما، اختر طاولة

وسأعدّ قهوتك.

بدأت أطالع الطاولات بحثا عن مكان بعيد عن الواجهة الباردة.

إنها «حانة شطرنج»، هكذا فكرت وأنا أشاهد قطعة ضخمة لحصان الشطرنج على مستوى عيني. كانت هناك أثريات وكتب ذات علاقة بالشطرنج وتاريخه موزعة ومعلقة في جنبات المحل، وكانت كل طاولة عبارة عن رقعة شطرنج، فانتقيت أبعدها وأكثرها عزلة مجلسا.

لاحظ الساقي وهو يعد لي القهوة، مروري على الأثريات وتوقفي عند بعضها لقراءة النبذة التاريخية تحتها، قبل أن أتخذ مقعدي. فسألني وهو يضع اللاتيه على طاولتي إن كنت ألعب، فأومأت بالإيجاب محاولا افتعال الحديث (مع شيء من الاعتداد):

– أنا متعجب بأن «بول مورفي»[1] قد مر من هنا؟

١– بول مورفي لاعب شطرنج أمريكي، وهو أول بطل عالم للشطرنج غير متوج. حقق هذا اللقب غير الرسمي بعد جولة في أوروبا، نازل فيها أشهر اللاعبين في القرن التاسع عشر.

– الحانة استطاعت الاحتفاظ بالرقعة التي تشير إليها. لقد لعب عليها أثناء جولته في أوروبا قبل ١٥٠ سنة.

وكما توقعت، كانت هذه فاتحة لحديث قصير ولكن شيق عن تاريخ الحانة وتاريخ الشطرنج، عن مواعيد اللعب فيه وعن زبائنه، عن غايتي في لندن وغايته من العمل في الحانة، ثم عن مسقط رؤوسنا. وعندها لمعت عيناه:

– أعتقد أن شخصا من خلفيتك؛ سيساعدني في فهم في أية حقبة وقعت مباراة الشطرنج هذه؟

ثم أتى لي بكتاب من الأثريات التي تحتفظ بها الحانة. الكتاب يبدو أنه مقتنى من إحدى مكتبات الكتب المستعملة، جلدته الرخيصة متهرئة، وزواياه فقدت حدتها. الصفحات اليمنى من الكتاب فيها مخطط رمزي لمباراة شطرنج – في لحظة حاسمة منها – مع الترميز

العالمي لحركاتها، والصفحات اليسرى نبذة تاريخية عن المباراة ولاعبيها. ولعله أقرب إلى رزنامة تعليمية عن تاريخ الشطرنج وطريقة لعبها، فالنص مكتوب بالروسية ومعدوم الهوامش والمراجع، وظني أنه من الكتب التي كان يوزعها الاتحاد السوفيتي على أندية الشطرنج التي نشرها في كل مدينة وقرية في نواحيه[٢].

يقول الساقي إن أحد مرتادي الحانة تركه هنا، وهو كهل روسي توقف عن ارتياد الحانة، ولكنه كان كلما مر، جلس مع الساقي، أو صاحب الحانة، أو أحد الزبائن، يتدارسون حركات اللعبة على الطاولة، بينما الرجل الروسي يترجم ويفسر النبذة التاريخية لهم.

يقول النادل وهو يشير إلى مباراة في الكتاب، بأن هذه المباراة القصيرة وغير المكتملة يُعتقد أنها أول توثيق

٢- تسيّد الروس لعبة الشطرنج في القرن العشرين، والسبب في ذلك أنه عندما انتصرت الثورة البلشفية في روسيا، ووصل "لينين" للحكم، أقسم أن يدخل العلم و الثقافة و الفن إلى كل قرية في الاتحاد السوفيتي، و لم يجد شيئا يجمع هذه العناصر الثلاثة ببساطة مثل الشطرنج.

لانتقال الشطرنج من فارس إلى الجزيرة العربية، قبل أن تنتقل مع الحروب الصليبية إلى أوروبا. وأن الكهل الروسي يقول إنها دارت بين ابن ملك الحيرة، وبين شاعر أو ملك – أو ربما قال شاعر وملك – عربي. وأنها جرت في واحة في شمال صحراء الجزيرة، ويُظن قبل ظهور محمد، وأنها تسببت في تيه الشاعر في الصحراء وضياعه. وأومأت له أن نحرك أحجار الشطرنج كما رُمّزت في الكتاب علّني أفهم ماذا جرى. ولما رأيت الأحجار تتحرك على رقعة الشطرنج، مثلما تحركت قبل ألف وخمسائة سنة، رأيت كل شيء.

رأيت الواحة، رأيت وأنا أقترب منها رجالا وفتيات متحلقين وسطها يتهامسون، وعيونهم مأخوذة ومتطلعة – لا تعبأ بمروري بينهم ومزاحمتي لأكتافهم – إلى سجادة.

على السجادة مُتَّكئين متقابلين، وعلى أحدهما ولي عهد المنذر ابن ماء السماء، يعلّم امرئ القيس في المتكئ المقابل كيف تتحرك قطع الشطرنج، ثم يعرض عليه اللعب فيقبل.

وعندها بدأ الرجال يفركون أياديهم من فرط الحماس ويلكزون بعضهم للمقامرة على مصير اللعبة، والفتيات يتغامزن ويتبسمن لبعضهن وهن يطالعن اللاعبين.

وليس متوقعا من ملكين عربيين إلا ما حصل، أن يبرز كلاهما أشجع مقاتليهم للمبارزة في ساحة المعركة لرفع حماسة حشديهما قبل أن يشتعل وطيس المعركة. لقد أخرج ابن المنذر الجندي أمام ملكه إلى وسط الرقعة، ورد امرئ القيس بإخراج جنديه المناظر لصدّه. ثم أخرج ابن المنذر فيله ثم حصانه. أما صاحب: «مكر مفر، مقبل مدبر معا» فقد أخرج حصانيه لملاقاتهما.

حصّن ابن المنذر- أو ابن ماء السماء كما سأسميه من الآن اختزالا - ملكه جيّدا في جناح جيشه. لكن شاعرنا وفارسنا الشجاع، ترك ملكه يقود المعركة بالمناورة بحصانيه من قلب جيشه.

عرفت أن ابن ماء السماء يروم كبد امريء القيس، حينما رأيته يبدأ هجومه بتحريكه الحصان مرة أخرى، بالطريقة ذاتها التي أسماها الطليان فيما بعد: Fegatello Attack[3].

وجد امرؤ القيس نفسه مضطرا أن يناور بحصانيه، ويهاجم قطع خصمه بالملك للدفاع عن نفسه. بينما يواصل ابن ماء السماء هجومه بالوزير، بالفيل الآخر، بالحصان تارة، وبالجندي تارة، مستدرجا الملك إلى عراء الرقعة ومطاردا له وحيدا، بينما حشوده تقف مشلولة خلفه متخلية عنه. كان ندماء امرئ القيس

٣- هي افتتاحية اشتهرت في إيطاليا، بسبب اسمها الذي يأتي من مثل شعبي بمعنى «ميت كقطعة من كبد». فهي افتتاحية ذات استراتيجية هجومية مبكرة، وغالبا ما يستخدمها المحترفون في الشطرنج كفخ للإيقاع بالمبتدئين فيها.

محبطين من الإهانة التي يتعرض لها ملكه، أما ندماء ابن ماء السماء فلا يتورعون عن الضحك وتشجيع الفتيات على التعليق والابتسام.

كان واضحا مصير امرئ القيس في اللعبة، ولكنه قرر الاستمرار باللعب بعناد، حتى توقفت اللعبة عند اللحظة الحاسمة المرسومة في الكتاب. وبدا لي ولساقي الحانة واضحا، أن الكتاب وإن صمت قبل أن تنتهي اللعبة؛ فإن كل ما تبقى أن يحرك ابن ماء السماء جنديه ويطرح الملك. ولقد رأيته بعيني يهمُّ بفعلها بيده قبل أن يتدحرج رأسه على رقعة الشطرنج، بينما يُطلّ امرؤ القيس بظله على اللعبة، حاملا سيفا يتقاطر منه الدم على الرقعة، على أحجار الشطرنج، وعلى رأس ابن ماء السماء قائلا: كش ملك!

أيام مستعملة

«وفاء الحربي»

نحن نكرر أنفسنا بشكل مريع. كل يوم أستيقظ في الرابعة فجرًا أصلي، أجهز الإفطار، أوقظ الصغار وأراقبهم يمضغون الطعام ببطء، يرتدون ثيابهم، أتأكد من أزرار قمصانهم قبل أن أتبعهم بنظري حتى يبتلع المنعطف باص المدرسة. هل أنا حادة! هل لدي نتوءات وأشواك كالقنافذ تمنع الاقتراب مني! لم يحتضنني أحد من أبنائي يومًا قط، أو قال لي: شكرًا أمي لأنك جزء من حياتنا. لم أسمع أبدًا من أحدهم كلمة تدل على أنه يحبني ولو على سبيل استمالتي لأوافق على أمر ما يريده بشدة.

صارت لدي فوبيا الخروج من المنزل، أيامي كلها

مستعملة، تكرر نفسها مرة تلو الأخرى. لم يكن مفاجئًا هذا الاكتشاف، لكن كلما حاول الملل أن ينبهني جاء الأبناء من مدارسهم وسهوت بالعمل. يحين موعد الغذاء، ومن ثم العشاء، ثم يضغط أحدهم -في مكان سري خلف الساعة- زر «إعادة تشغيل اليوم»، ولو أنه ينسى مرة تغيير مسمى اليوم من الأحد إلى الاثنين لاكتشفت أنني أدور في حلقة اسمها يوم وليس أسبوعًا. قررت مرة وعلى سبيل كسر الروتين: لا غداء اليوم. وانتظرت أن تحدث مشكلة تضع بعض النكهة على حياتنا الرتيبة، أن يغضبوا مني، أو يظنوا مثلا أنني مريضة ويسألونني عن حالي. لأشعر على الأقل بأنني أحتل حيزًا من حياتهم، غير أنهم ووالدهم لم يكترثوا، اغتسلوا وناموا. بقيتُ وحدي ذلك اليوم أطول مما سبق، فصارت تلح عليّ بشدة يومًا تلو الآخر رغبة أن أوقف تكرار أيامي. في يوم الأحد أو الثلاثاء لم تكن المسميات مهمة على أية حال،

كتبتُ لهم رسالة بأنني لم أعد أحتمل الحياة معهم. ابني الأصغر أول من يعود، وجد الرسالة على طاولة الطعام قرأها ولم يستوعب! فتش عني مناديًا بصوت تكتمه الغصة في كل أنحاء المنزل، وحين لم يجدني جلس على عتبة الباب ينتظر البقية وهو يبكي بفزع طفل لا أعرفه، وكأنه لم يشعر بالأمان قط سوى في حضن أمه، وحين حضر والده وإخوته استقبلهم باكيًا بخبر اختفائي من المنزل، صُعقوا، صرخوا وتشاوروا فيما بينهم خائفين، أكل الهلع ملامحهم حتى شككت: هل هناك سبب آخر غير هجري لهم يُقلقهم! سألوا الجيران عني، وبلغوا الأمن باختفائي، لم يخطر على بال أحدهم أن يبحث عني في حجرة المؤونة في زاوية المطبخ، كنت أجلس وقدماي ممددتان، أتكئ بظهري على رف المعلبات وقد مال رأسي إلى داخل الرف الثاني، لم يكن السكين الذي قطعت به شراييني آخر ما حملت هم من سيقوم بغسله،

فقد أنهيت كل أعمال المنزل قبل أن أفعلها، بل الغبار المتجمع أسفل الرف، كيف لم أنتبه له سابقا وأنظفه، فحتى آخر نفس لي كنت أفكر فيهم وفي نظافة منزلي، ولولا أن خيط دمي الذي استغرقه الأمر طويلًا ليعبر من تحت الباب لتنبيههم قبل فوات الأوان لكنت الآن بينهم أستعد لتكرار أيامي، ولم أكن لأسمعهم في الليل يبكون بحرقة في أسرتهم، لم أكن لأرى والدهم يتصفح ألبوم العائلة ويحدق طويلًا في صوري.. لم يعد ثمة مجال للعودة، الأم التي تذهب إلى السماء لا تعود.